

قراءات في نشأة وتطور المدن تاريخيا ووجهة المدينة الحديثة ومشكلاتها



د. وليد أحمد السيد *

معظم المدن العالمية اليوم اعتمدت على المناطق المجاورة وعظمت أهميتها

بأهمية النظام العسكري القاهر الذي بسط سيطرته على مناطق شاسعة من العالم



روما .. خيلاء التاريخ



أريحا .. أقدم مدن العالم

■ ارتبط نشوء المدن العظيمة التي عرفتها البشرية بعاملين مهمين هما الموارد الطبيعية وأهمها التربة الزراعية الخصبة والموقع الإستراتيجي المطل على خطوط التجارة. وكانت المدينة هي موئل الحضارة وحاضنتها حيث ترعرعت ونشأت بها فنون الإنسانية وآدابها. وبالرغم من أن التاريخ لا يكاد يعرف اليوم الذي قامت فيه أول مدينة، إلا أن أريحا بفلسطين تظل من أقدمها بقيامها على الزراعة قبل ٨٠٠٠ عام، وحيث بدأت ظاهرة جمع الأحجار وتكويها لإقامة "المأوى" لتعلن نقطة التحول من مرحلة البداوة والتنقل وجمع الثمار إلى مرحلة الاستقرار. ■

■ تتراكم اليوم تساؤلات حول مصير العالم في ظل تنامي أعداد سكان المدن على حساب الأرياف، بازدياد متسارع مقلق

لعمليات الأيض الطبيعي. وبهذا التعريف البسيط، فإن مدينة مثل لندن يقطنها ١٢٪ من سكان بريطانيا والتي تمتد لمساحة ١٧٠ ألف هكتار تستهلك ما يعادل "مساحة جغرافية فعلية" هي ٢١ مليون هكتار أو ١٢٥ ضعف مساحتها الجغرافية الظاهرية. ويكلمنا أخرى يستلزمها مساحة بريطانيا الجغرافية كلها "كمساحة فعلية" لتلبية احتياجاتها البيئية ومستلزماتها بحسب تعريف (Rees). ومن هنا فمدينة روما قديما ازدهرت بقدرة الإمبراطورية الرومانية على جلب مصادر الغذاء والرفاه أبعد بكثير من رقعة المدينة الجغرافية بتقليص الغطاء النباتي الطبيعي المحيط والمناطق الزراعية مما أسهم لاحقا في أفول نجمها مع تراجع قدرات الجيش الروماني على التوسع والإبقاء على المصادر الطبيعية لرفد العاصمة الرومانية العظيمة. ومن الأسئلة المهمة التي تطرح في فضاء التغيرات التي تضفيها المدينة الحديثة على البيئة الطبيعية هي أسئلة التعددية البيولوجية وخطر الانقراض. فالبيئة المحيطة تثبت أن بها تنوعا مذهلا لم يتمكن العلم الحديث من سبر أكثر من السطح منه فقط. فملء قبضة اليد من التربة الطبيعية تحوي أكثر من ٢٠٠٠ نوع من المخلوقات التي لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ولها قوانين الطبيعة في الدفاع ودورة الغذاء. وهذه المساحة المحدودة من التربة تخفي عن أعيننا ما لا نرى أكثر من مليون مخلوق منها البكتيريا كأحد أنواعها. ومشكلة الانقراض تطرح أسئلة روحية في وجود الإنسان كخليفة وراع ومهيمن على الكائنات المحيطة وبضرورة تسليمه للأمانة التي أوتمن عليها كما هي في أحسن الأحوال. وفي الخسائر التي يخسرهما جنس البشر من فقد أنواع عديدة من الكائنات التي تشكل معظم هذا الكون وتشكل أكثر من ٩٠٪ من جسم الإنسان تقدم للبشر خدمات مجانية جليلة. وهناك ما لا يعرفه العلم بعد من خدمات الكائنات المحيطة التي يشكل فقدها كارثة. فالهواء والماء والتراب كلها تعمل في خدمة الإنسان ومجانا.

ويعتقد أن هناك ٥ موجات عاشها العالم من الانقراض للكائنات المحيطة كل منها امتد عبر آلاف السنين. ولكن يعتقد أن الموجة السادسة هي أخطرها إذ يعتقد أن السرعة هي عنوانها إذ إن هناك كائنات مهددة بالانقراض في غضون ١٠٠ سنة فقط!

ويحتاج مفهوم "القرية العالمية" أو (Global Village) الذي ابتدعه منظر تكنولوجيا المعلومات (Marshall McLuhan) مع مطلع الستينيات إلى إعادة قراءة وتقييم. فالمفهوم أطلق ليعني أن العالم قد طويت المسافات به بفضل وسائل التكنولوجيا الحديثة. حيث يمكن لنا في أي مكان أو مدينة بهذا العالم أن نشاهد ما يفعله غيرنا وطرائق معيشتهم وثقافتهم بشكل تاريخي غير مسبوق. بيد أن هذا المفهوم يفتقد للدقة بحسب هذه النظرية، فمفهوم القرية بالتعريف تعني مكان محدود حيث يعرف القاطنون بعضهم بعضا بشكل مباشر ووثيق، وهذا ليس الحال البتة في عالم سريع يقطنه أكثر من ٥.٤ مليار نسمة. فالحال أكثر شبيها براكب الحافلة الذي يمر عبر نوافذ بيوت لا يعرف منها إلا ما يراه من غرف المعيشة بها وتظل غريبة ومجهولة عنه. وهذا هو عالم اليوم بتوسع مفهوم "العالمية" (Globalisation).

ومن هنا ينزع البعض إلى دحض فكرة "القرية العالمية" واستبدالها بمفهوم "المدينة العالمية" أو (Globalopolis) حيث تقل الروابط الاجتماعية وتستبدل بعوامل المصلحة والتبادل التجاري المادي الذي يفرض الحواجز على الروابط الاجتماعية ويقننها. وحيث تبرز مفاهيم سيطرة التكنولوجيا ومظاهر المدنية ومشاكل المدن التي تتواصل تكنولوجيا فيما بينها بما فيها من أوجه المنفعة والشبه. بخلاف مفهوم القرية التقليدي. ومع تنامي ظاهرة العالمية مع مطلع الثمانينيات، بدأت تطفو على السطح مقولات وأطروحات تمجد المحلية في مقابل العالمية، ولكن مع عدم إغفال الأخيرة، كأطروحة "فكر عالميا ولكن تصرف محليا". والتي تعتبر من أبرز ردود الفعل للمشكلات التي بدأت تجلبها المدينة الحديثة لسكانها مما لم تعده التجمعات البشرية التقليدية. وللموضوع تمة ■



البندقية .. مدينة تتجاور البحر والزمن



باريس .. عاصمة الجمال الفتية

ترفع من درجة حرارة الجو طبيعية عملها هي بث الهواء البارد داخل الأبنية وطرده الهواء الساخن في الجو. وثالثا تطرح المدن غازات وملوثات في الجو مثل ثاني أكسيد الكربون وثاني أكسيد النيتروجين الناتج من الوقود والتي تعمل على خلق طبقات غازية تتراكم في الجو فوق المدن. وفي حال وقوع بعض المدن في بيئات طبيعية محصورة بالجبال المحيطة تتشكل ما تعرف "بقبة الحرارة الصناعية" فوق المدن والتي تحبس الهواء الحار وتضعب عملية التخلص منه بشكل طبيعي شأن المدن الأخرى.

ومن أبرز المشكلات الأخرى التي تواجه مدن اليوم هي المصادر الطبيعية. فقيام المدن أصلا قام تاريخيا بناء على مواقع استراتيجية شكلت العامل الرئيس في اختيار مواقعها بالإضافة إلى ميزات وقوعها على خطوط التجارة والمواصلات. ومن هنا بدأ يظهر مفهوم الرقعة الجغرافية "الفعلية" للمدينة أو (Footprint) والتي تتجاوز مساحتها الجغرافية الظاهرية. فالاقتصادي الكندي (William Rees) يعرف الرقعة الجغرافية الفعلية للمدينة على أنها المساحة الفعلية اللازمة لاكتفاء المدينة بسكانها من المصادر الطبيعية، وتمويل احتياجاتها من منتجات الأخشاب وكذلك المساحة اللازمة لطرده غازات ثاني أكسيد الكربون التي تطرحها مخلفات الصناعة بها، والمساحات الخضراء اللازمة

على حساب الأراضي الزراعية، وتزايد طبقة الأوزون بالجو الناتج من غلاف سميك من (Carbon dioxide) بات المتهم الرئيس في التغير المناخي المعروف (Global Warming)، والمشكلات الاجتماعية كالبحث عن العمل والجريمة وتغير مفاهيم الصحة الفردية وتدهورها في المدينة، كلها من المتغيرات المستجدة التي تحتاج لبرامج المؤسسات والحكومات على المدى القصير والطويل.

ومن أبرز المشكلات البيئية التي تطرحها مدن اليوم هي مشكلة التزايد المستمر في درجة حرارة العالم أو ما يعرف "بالسخن العالمي" أو (Global Warmer). ومعلوم أن المدينة تزيد درجة الحرارة بها عن التجمعات السكنية الكلاسيكية، كالقرية والبلدة الصغيرة، لثلاثة عوامل رئيسية: الأولى هو أن المدينة كبنية مبنية تحبس الحرارة وتخزنها عبر منشآتها وطرقاتها الأسفلتية وجدرانها وأسقفها الإسمنتية ثم تعيد بثها في الجو المحيط. ثانيا فالمدن هي مراكز استهلاك الطاقة، ومعدل استهلاك الفرد من الطاقة في دول العالم المتقدمة للفرد الواحد يصل إلى ١٠ كيلو واط. وتعمل المركبات ومصابيح الإنارة والأجهزة الكهربائية على رفع درجات حرارة الجو المحيط بالمدينة، وحتى مكيفات الهواء

■ وقد عرف العالم القديم مجموعة من المدن العظيمة التي نشأت في بلاد الرافدين حول نهري دجلة والفرات، كالحضارة الآشورية والسومرية. وكانت مدن أور ونيوى وبابل من المدن الشهيرة التي وردت في الكتب السماوية والعهد الجديد. وكان من أهمها روما "المدينة الخالدة" وأكبر مدينة في العالم عام ١٠٠٠ للميلاد والتي وصفها كتابات "قتروجيوس" والتي أعاد اكتشافها المعماري ألبرتي (Leone Battista Alberti) ليعيد تعريف مدينة العصور الوسطى بساحتها عام ١٤٥٣ وللمجاورة الطراز القوطي الذي انتشر من شمال أوروبا.

وعرف العالم مدنا اشتهرت بالتجارة في العصور الوسطى وأهمها مدينة القسطنطينية التي يعتبرها المؤرخون الوريث الشرعي لعظمة روما الرومانية، حيث تخاطبت القسطنطينية من موقعها الإستراتيجي تجاريا مع الهند وأفريقيا وحوض البحر المتوسط وغرب أوروبا. وتلتها مع نهاية حقبة العصور الوسطى مدينة البندقية "فينيسيا" التي زاوجت البحر وترعرعت على التجارة مع الهند وفارس وشمال أفريقيا. ونتيجة لذلك أضحت منعمة بالثراء الفاحش وازدهرت كعاصمة للفنون والعلم والموسيقى والأدب.

وفي العصور الحديثة نشأت وتطورت في أوروبا مجموعة من المدن المهمة التي أخذت أهمية عالمية لموقعها الإستراتيجي على خطوط المواصلات العالمية المفضلة، فضلا عن أهميتها المعنوية في رفد مظاهر الأدب والتراث حيث نشأ وترعرع كبار المفكرين والأدباء والفنانين العالميين، كلندن وباريس.

ومعظم هذه المدن العالمية اليوم اعتمدت في مصادرها الطبيعية على المناطق المجاورة وعظمت أهميتها بأهمية النظام العسكري القاهر الذي بسط سيطرته ونفوذته على مناطق شاسعة من العالم. وفي هذه المدن ازدهرت حركة الملاحة البحرية بتوسع الاستعمار وحدود الدولتين البريطانية والفرنسية.

ونتيجة لدور هذه المدن ووقوعها على خطوط المواصلات والتجارة من جهة ووقوعها الإستراتيجي على شواطئ البحار والأنهار تم تطويرها كموانئ ملاحية استراتيجية وعالمية بما يتضمنه الميناء من حركة بضائع وتخزينها فضلا عن أعداد السفن التي تتقاطر إليها وترسو في موانئها. ومن هنا فمع العام ١٨٢٠ طورت بريطانيا نظاما فريدا للموانئ بوسعه تخزين أكثر من ١٤٠٠ سفينة تجارية.

وتتراكم اليوم أكثر من أي وقت مضى مجموعات من التساؤلات حول وجهة ومصير العالم في ظل تنامي أعداد سكان المدن وظاهرة التمدن، على حساب الأرياف، والتي تطرد بازدياد متسارع مقلق. فالتحضر أصبح ظاهرة عالمية منذ أكثر من قرنين من الزمان. فالعالم في العام ١٨٠٠ لم يعهد مدينة يصل عددها المليون باستثناء مدينة واحدة هي لندن.

وبينما كان عدد سكان المدن الكبرى في العالم قاطبة لا يزيد على ٢٠ مليون نسمة آنذاك، أصبح عدد سكان المائة مدينة كبرى مجتمعة يزيد على ٥٤٠ مليون في العام ١٩٩٠، أكثر من ٢٢٠ مليونا منهم يتركز في ٢٠ من هذه المدن العالمية الكبرى مثل طوكيو التي يزيد عدد سكانها على ٣٠ مليونا اليوم، ومكسيكو سيتي ٢٠ مليونا ونيويورك ١٠ ملايين.

وليس هذا فحسب، فهذه المدن الحديثة تشكل فقط ٢٪ من مساحة سطح الكرة الأرضية ومع ذلك تستنفد ثلاثة أرباع المصادر الطبيعية للأرض، وتطرح نفس الكمية الهائلة من الفضلات ومخلفات الصناعات.

ومسألة العلاقة بين التجمعات البشرية والاستفادة من موارد الطبيعة مسألة قديمة عملت على تقويض حضارات عظيمة سادت ثم بادت. فمثلا طورت مجتمعات الحضارتين الآشورية والسومرية نظما عبر العصور للاستفادة من البيئة الطبيعية ومكافحة فيضان الأنهار. بيد أن عدم قدرتها على الاستفادة من فائض المياه بعد زراعة محاصيل القمح وبغعل التبخير أدى ذلك إلى ملوحة التربة مما أجبر المزارعين على زراعة الشعير بدلا من القمح.

واليوم لا تزال تعاني تربة مواقع حضارة سومر من الملوحة حيث فائض المياه بعد زراعة محاصيل القمح وبغعل التربة المتوارثة منذ قديم التاريخ ويعتمد تبعا لذلك على ٧٠٪ من احتياجاته الغذائية على الاستيراد.

وتشكل قضية علاقة المدينة الحديثة بالبيئة المحيطة أحد أبرز المشاكل المعاصرة الأخذة بالاتساع. فمشاكل التلوث بأنواعه المعددة، وتناقص الموارد الطبيعية بتزايد رقعة المدينة